التناص بين الحضور والتأسيس :

توطئة :

للتناص تعاريف متعددة ومختلفة لتعدد المناهج والمفاهيم ، بل ولتعدد المرجعيات والتأثيرات والإيديولوجيات أيضا ، لكن الملاحظ أن هذه التعاريف تتقاطع في أن التناص بمفهوم عام هو : حضور نص في نص آخر بطريقة أو بأخرى .

كما أنه إحياء نص سابق أو عدة نصوص سابقة بنص لاحق حيث تتمظهر هذه النصوص فيه بصورة ظاهرة أو مخفية .

وهو أيضا استدعاء نص في نص آخر عبر آليات وكيفيات مختلفة.

والتناص بمفهومه الدقيق يختلف من ناقد إلى آخر، ذلك ما سنتطرق إليه في هذا الفصل بتتبع محطاته وحضوره في النقد الغربي وكذا في النقد العربي القديم والحديث .

وفي البداية وتحت عنوان مفهوم التناص سنتعرض لظهور هذا المصطلح في الساحة النقدية ، وكذا تعدد مفاهيمه نظرا لشساعة حقله ، وتعدد نظرة النقاد له .

1- مفهوم التناص :

1-1- ظهور المصطلح :

تعد فكرة التناص (Intertextualité) ، (Intertextuality) ، من الأفكار المركزية للنظرية الأدبية والثقافية المعاصرة ، وتعود جذورها إلى الناقد الروسي ميخائيل باختين (mikhael bakhtine)(1895 ، 1975) ، كما تعتبر جهود الباحثة البلغارية جوليا كريستيفا (Julia kristeva) رائدة في هذا المجال باستعمالها لمصطلح التناص لأول مرة عام 1966 مستفيدة من بحوث باختين في مجال الحوارية (dialogisme)، والتي تكلم عنها في أعمال له ، منها : شعرية دستويفسكي(poétique de dostoiski) ، وفي جمالية ونظرية الرواية (esthétique et théorie de roman) وفي جمالية الإبداع الشفوي (esthétique de la création verbale) ، وقدمت كريستيفا تأطيرا مفهوميا لهذه الفكرة في مقال لها بعنوان " الكلمة والحوار الرواية " ، وبذلك استطاعت أن تدشن المصطلح والمفهوم معا .

كما" أثار مصطلـــح التناص اهتماما كبيرا في الأوساط النقدية الغربية ، ذلك أن الإجراءات التي تضمنهـــا بدت كتعويض منهجي لنظرية التأثير التـــي قـــامت عليها أساســـا الأبحاث في الأدب المقارن "[1]، والحوارية كما يعرفها تودوروف هي : " كل علاقة بين ملفوظين ، فكل نتاجين شفويين أو كل ملفوظين يحاور أحدهما الأخر يدخلان في نوع خاص من العلاقات الدلالية نسميها علاقات حوارية "

والواقع أن باختين قد استفاد مما أنتجه الكاتبان الروسيان تولستوي ، وديستوفسكي ، ففي عام 1929 أصدر باختين كتابه "شعرية ديستوفسكي " ، ووضح بأن روايات هذا الأخير تتميز بتعدد الأصوات ، وهذه الأصوات هي صدى لروايات أخرى تقاطعت مع روايات ديستوفسكي .

فتعدد الأصوات الذي أطلق عليه فيما بعد الحوارية هو من المفاتيح التي شغلت باختين في دينامية الخطاب الروائي .

وباختين قد وظف مصطلح تداخل ، وحوارية دون أن يذكر مصطلح تناص ، لتأتي كريستيفا ملتقطة الفكرة وإعطاءها اسما جديدا هو التناص .

كما يمكن القول أن بعض الشكلانيين الروس مثل جاكبسون (Jokobson) وإيخامبلوم (Eikhemblaum) وشكلوفسكي (chklovski) أشاروا إلى ما يمكن أن يكون " تفاعلا بين النصوص " ، إلا أنهم أهملوا ذلك لانشغالهم بتخليص النقد من الإيديولوجيا، حيث يرى الدكتور مفيد نجم :" أن أول من أشار إلى التناص هو شكلوفسكي عندما ربط بين العمل الأدبي الفني وعلاقته بالأعمال الفنية الأخرى "[2].

كما يرى الدكتور شجاع العاني بأن " شكلوفسكي يعد أول من أشار إلى التناص " [3]

وفي سنة 1975 بدأ مفهوم التناص يأخذ صبغة جديدة مع الناقد رولان بارت ، وفي سنة 1976 خصصت مجلة (poétique) عددها السابع والعشرين كاملا لمفهوم التناص ، وفي سنوات 1979 إلى 1982 ساهم ميكائيل ريفاتير بعدة أعمال تناولت مفهوم التناص منها : "إنتاجية النص "، "التعالق النصي" ، "أثر التناص".

[1] - رشيد بن مالك : قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص ، دار الحكمة ، الجزائر ، 2000، ص:93.
[2] - مفيد نجم : التناص بين الاقتباس والتضمين (الوعي واللاشعور) ، مجلة بيان الثقافة ، ع 55 ، يناير 2001.
[3] - ينظر : عبد الستار جبر الأسدي : ماهية التناص ، مجلة الفكر والنقد ، ع 28 ، المغرب.

ثم جاء الناقد جيرار جينيت بـ: أطراس (palimpsestes) ،واستطاع أن يحدد مجالا أوسع لنظرية التناص .

2-1- تعدد مفاهيم التناص :

إن شساعة حقل التناص جعل مفاهيمه تتعدد بل تتوالد وتتناسل وفق انشغالات النقاد وانتماءاتـــهم الإيديولوجيـــة والجماليـــة ، بـــل ومناهجـــهم ونظرتهم إلـــى النص الأدبي ، يقول ليون ، س ، روديه ، leon. S.Roudiez في كتابه "الرغبة في اللغة" (desire in language)" فالتناص مصطلح حداثي و أكثر المصطحات إشكالية واختلافا بين النقاد".[1]

ويقول الدكتور سعيد يقطين :"وهذا الاختلاف الذي رأيناه في تحديد المصطلح ليس غريبا على المفكرين العرب فهم قلما يتفقون على مصطلح واحد تستعمـــله الأمـــة العربـــية من شرقها إلى غربها، وإن كانت هذه الظاهرة كثيـــرة المصطلحات لمفهوم واحد لا توجد عند العرب فقط " [2]

ولمعرفة أهم مفاهيم التناص نتطرق إلى النقاط الآتية :

2- التناص عند الغرب:

بحكـــم اعترافنا للـــدرس الغربـــي بالسبـــق في علمنة النقد والأدب ، وخاصـــة فكرة التناص ، فإنني ارتأيت أن أبدأ بالتناص عند الغرب ، فيا ترى ما نظـــرة أولئك المنظرين له ؟ وكيـــف عالجوه ؟.

2-1- التناص عند جوليا كريستيفا : يرجع الفضل في ظهور مصطلح التناص - كما سبق الذكر- للباحثة البلغارية الفرنسية جوليا كريستيفا التي استطاعت أن تكتشف هذا المصطلح بل وتعطي الانطلاقة الأولى له ، ففي عام 1966 وبالضبط في باريـــس ، وتحت مقالـــة عنوانها " الكلمة والحوار والرواية " نطـــقت جوليا مصطلـــح التـــناص معبـــرة عنـــه بلفظة " Intertextualité " ، وفي كتاب أصدرته جماعة (Tel quel)*[1] بعنوان "نظرية الجماعة " وهو مؤلف جماعي شارك فيه:فوكو (faucault) ،

1-leon s. roudiez :desire in language , A Semiotic approach to literature and art , oxford , black well , 1980 –

[2] – سعيد يقطين : انفتاح النص الروائي (النص – السياق) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ،ط1، 1989 ، ص: 93.

[1]* - tel quel: جماعة من الباحثين ، نشرت أعمالها في مجلة باسمها ، تأسست سنة 1960 تحت إشراف فليب سولرس .

بارت (Barth) ، دريدا (Derrida) ، سولرس (sollers) ، وكريستيفا (kristeva) تناولـــــت مفـــهوم التناص بأنـــــه :" تفاعل نصّي يحدث داخل نص واحد "

وترى كريستيفا أن وظيفة التناص ترتبط بإيديولوجية النص وتسمح له بالتحرك داخل الثقافة وداخل المجتمع.

وبعد فترة من الجمود عادت كريستيفا حيث وفي سنة 1974 ألفت كتابا بعنوان " ثورة اللغة الشعرية " حيث تطرقت فيه إلى التناص .

وترجع كريستيفا التناص إلى عنوانين :

الأول : عبر النصوص،والثاني : التصحيفة : حيث أخذت هذه التسمية من عند دي سوسير حيث تقول : " وقد استطعنا من خلال مصطلح التصحيف الذي استعمله سوسير بناء خاصية جوهرية لاشتغال اللغة الشعرية عيّناها باسم التصحيفة أي امتصاص نصوص متعددة ".[1]

وحددت كريستيفا التناص بأنه : " ترحال للنصوص وتداخل نصي ، ففي فضاء نص معين تتقاطع ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى ".[2]

كما ترى كريستيفا أن النصوص الشعرية الحداثية هي : " نصوص تتم صناعتها عبر امتصاص ،وفي نفس الوقت عبر إعادة هدم للنصوص الأخرى للفضاء المتداخل نصيا ".[3]

وقد ميّزت كريستيفا بين ثلاثة أنماط لهذا التداخل النصي ،وهي :

1- النفي الكلي : قد يكون المقطع الدخيل منفيا كليا ، ومعنى النص المرجعي مقلوبا .

2- النفي المتوازي : حيث يظل المعنى المنطقي للمعنيين الشعريين هو نفسه ، إلا أن هذا لا يمنع من أن يمنح الاقتباس للنص الجديد معنى جديدا،معاديا للإنسية والعاطفية والرومانسية التي تطبع الأول .

3- النفي الجزئي : حيث يكون جزء واحد فقط من النص المرجعي منفيا .[4]

وتضع كريستيفا آليات لتوظيف النص السابق في النص اللاحق ، حيث يقول عبد الستار جبر الأسدي في مقال له في مجلة الفكر والنقد " ومن التقسيمات الثلاثية للتناص ما قام به كل

[1] - جوليا كريستيفا : علم النص ، ترجمة ، فريد الزاهي ، مراجعة : عبد الجليل ناظم ، ص 78 .
[2] - نفسه ، ص :21.
[3] - نفسه ، ص : 78.
[4] - ينظر: نفسه ، ص : 79.

من كريستيفا ، وجان لوي، بملاحظتهما أن للتناص أو إعادة كتابـــة النص الغـــائب ثلاثة قوانين هـــــي :

1- الاجترار : عملية إعادة كتابة النص الغائب بوعي سكوني ، وتمجيد بعض مظاهره الشكلية الخارجية .

2- الامتصاص : عملية إعادة كتابة النص الغائب وفق النص الجديد ليصبح امتصاصا له متعاملا معه بشكل حركي وتحولي .

3- الحوار : عملية تغيير النص الغائب ونفي قدسيته في العمليات السابقة."[1]

والمتتبع لأعمال جوليا كريستيفا يدرك أن هذه الناقدة استطاعت أن تشق طريقا في النقد الجديد ، من خلال نزعتها وثورتها على البنيوية ، من خلال التركيز على اللغة وخروقاتها وانزياحاتها المتعددة والباهرة .

وقد نظرت إلى النص على أنه نوعان:

أولا: النص الظاهر وهي البنية التي نظرت إليها البنيوية .

وثانيا: النص التوالـــدي وهو النص المحلل ، والذي يتخطى ويتجاوز البنية، بل يـــهدمها ويـــعيد بناءها من جديد ، من خـــلال كـــون النـــص عدســـة مقعرة لمعان ودلالات متغايرة ، ومتباينة ، ومعقدة في الوقت نفسه .

فالنص عندها إذن يقوم بخرق الدال ، والذات ،والتنظيم النحوي ، يهدم نفسه بدلالاته العميقة ليرسم نصا جديدا بروح الأول.

2-2- التناص عند رولان بارت:

رولان بارت (roland barth) -أستاذ جوليا كريستيفا- من النقاد السيميائيين ،تناول التناص كمفهوم وليس كمصطلح في مقال له بعنوان :" موت المؤلف "، واستطاع أن يجعله في الصفوف الأولى من الساحة النقدية ، حيث أصبغ عليه الصفة الرسمية بعد ما كان متمردا زئبقيا ،وهذا من خلال طرحه ونظرته للنص ،حيث استطاع أن يدمر أصل المعنى ،باعتبار

[1] - عبد الستار جبر الأسدي : ماهية التناص ، مجلة الفكر والنقد ، ع 28، المغرب.

النص مكون من عناصر نصية سابقة ،بل هو نسيج من الاستشهادات والاقتباسات،ونظر بارت إلى الكتابة أنها :" تدمير لكل صوت ولكل أصل ".[1]

وفكرة موت المؤلف هي تدمير لفكرة الأصل الذي يمكن أن يرتد إليه النص ، ومن ثم تدمير لفكرة المركز ، ووفقا لهذا التصـــــور فالـــــكاتب يشـــكل مدلولا متعاليا يقف وراء العمل ، يعيش ويفكر من أجله ، وعلاقته به كعلاقة الأب بابنه ، إن موت المؤلف أو الكاتب هو علامة التمرد على سلطة الأبوة وتدميرها ،وبذلك يدخل النص إلى عالم التناص ، فكل نص بحسب بارت -طبعا -هو متناص ، وكتابة متعددة ،يقول بارت :" إن أي نص يتكون من كتابات متعددة ، تنبثق من ثقافات متنوعة ، وتدخـــل في حوار وفـــي محـــاكاة تهكمية ساخرة ، وهي تنازع أو خلاف " .[2]

ويطرح بارت بفكرة موت المؤلف فكرة أخرى هي ميلاد القارئ يقول بارت :"ميلاد القارئ يجب أن يكون معادلا لموت المؤلف" .[3]

وبارت يقر في أكثر من موضع بأن فكرة التناص تعود إلى كريستيفا في كتابه "التحدي السيميوطـــيقي"، و يقـــرر أن النـــص يشـــير إلى نصوص أخرى يقول عنهـــــا : " وهي فكرة مقترحة من قبل جوليا كريستيفا ، إنها تتضمن أي ملمح في الخطاب يرتد إلى نصوص أخرى "[4].

وبالتالي يلتقي بارت مع كريستيفا في فكرة التناص بنظرتهما لإنتاجية النص ،وبارت يذكر التناص كمصطلح لأول مرة عام 1973.[5]

والنص عنده " نتاج تفاعل نصوص لا حصر لها مخزونة في ذهن المبدع "[6].

ويعرفه بأنه عبارة عن " نسيج من الاقتباسات والإحالات والأصداء ، من اللغات الثقافية السابقة أو المعاصرة التي تخترقه بكامله ".[7]

1- Roland barthes : the rustle of language ,translated by Richard howard, newyork:hill and wanck,1986 ,p:49

2-Roland barthes : the rustle of language ,Ibid , p:54

3-Roland barthes : the rustle of language , Ibid , p:55

4-Roland barthes : the rustle of language , Ibid, p:230

[5] - ينظر: www.jehat.com ، شوهد يوم 2012/05/15

[6] - نور الدين السد : الأسلوبية وتحليل الخطاب (دراسة في النقد العربي الحديث) ، دارهومة للطباعة والنشر والتوزيع ،الجزائر، 1997، ص : 79.

[7] - رولان بارت : درس في السيميولجيا ، ترجمة : عبد السلام بن عبد العالي ، دار توبقال للنشر ، ط2 ، 1982 ، ص:21.

وعلى العموم فبارت اهتم بالنص والتناص من خلال مجموعة من التصورات تعالج بالخصوص الكتابة والقراءة ،وتجعل التناص إجراء وتقنية بل وخلفية في هذه الأفكار ، إلا أن مقارباته تفتقر إلى مناقشة المشاكل الإجرائية التي تواجه النقاد .

2-3- التناص عند جيرار جينيت :

يمكن أن نجد اختلافا جوهريا بين ما طرحه بارت وكرستيفا حول فكرة التناص وما طرحه جيرار جينيت حول الفكرة ذاتها ، حيث جينيت يرى التناص أنه مجرد واحد من بين علاقات أخرى وليس عنصرا مركزيا ، وهـــذا نتيجـــة لإيمانه بفاعلية النسق المغلق ،أي الاكتفاء الذاتي للنص.

وبحكم هذا النظر فإن هناك تداعيات أخرى ستظهر لدى جينيت في معالجة وتحليل النص باعتباره بؤرة المشكلة ، ففي كتابه " طروس [1]: الأدب في الدرجة الثانية " يتعرض جينيت لفكرة العـــلاقات بين النصوص ، والطـــرق التـــي تعيد قـــراءة وكتابة نص من النصوص ، والملاحظ في ذلك أنه كان مشغولا بصناعة قوانين العلاقات بين النصوص ،وبالتالي تجاوز سابقيه بطرح **فكرة النصية المتعالية** أو ما يسمى التعالي النصي ،والتي عرفت بأنها :"كل ما يضع النص في علاقة ، سواء كانت واضحة أو خفية بنصوص أخرى ".

ويقول جراهام ألن عن النصية المتعالية أنها " نسخة جينيت للتناص ".[2]

وتنقسم النصية المتعالية عند جينيت إلى خمسة تصنيفات هي :

1- **التناص** : يشير جينيت أن هذا النوع من العلاقات قد اكتشف من قبل كريستيفـــا في كتـــابها (sémiotique)، ويعرفه بأنه : " علاقة حضور مشترك بين نصين أو عدة نصوص " وهو اقتباس أو تلميح أو انتحال .

2- **النص الموازي** : ويسمى أيضا التـــوازي النصـــي أو المناص أو النصوص المصاحبة ، ويقصد به جميع المعلومات الهامشية والتكميلية التي تدور حول النص، أي كل النصوص المحيطة بالنص الأدبي وتشمل :

[1] - طروس : مفردها طرس (palimpseste) وهو رق من الجلد ، يكتب ليه ثم يمحى ، وتعاد الكتابة عليه في سلسلة لانهائية .

2-Graham Allen ; intertextuality , London and New York ; rout ledge , 2000 , p ; 101.

- العتبات المتنوعة: أي الخاصة بالكاتب (العناوين ، الإعلانات ، الإهداءات ، العبارات المقتبسة ، المقدمات ، الملاحظات) وأيضا المقابلات مع الكاتب والملخصات الرسمية.
- العتبات الخاصة : وتشمل المراسلات ، الأدوات المادية للإنتاج ...

3- **الميتناصية** : وتسمى أيضا الميتانص أو النصية الواصفة ويقصد بها النص الذي يتكلم عن العلاقة بين نصين أو أكثر ، أي علاقة التفسير والتعليق.

4- **النصية المتفرعة** : وتسمى أيضا التوالد النصي ، ويشرحها جينيت بوجود نصين أحدهما أصلي سابق والآخر فرعي لاحق ، وجينيت في كتابه "طروس" يعطي مثالا عن ذلك بنصي الإلياذة والأوديسا ، فالإلياذة نص متفرع من نص أصلي هو الأوديسا ،أي أنه نص قد حول من نص أصلي ، وهو بذلك نص مشتق من نص سابق عن طريق التحويل أو المحاكاة .

5- **المعمارية النصية** : وتسمى أيضا النصية الجامعة ، وهذا النمط تناوله جينيت في كتابه " مدخل لجامع النص " حيث يقول : " وأضع أخيرا ضمن التعالي النصي علاقة التداخل التي تقرن النص بمختلف أنماط الخطاب التي ينتمي إليها النص ، وفي هذا الإطار تدخل الأجناس وتحديداتها ، وهي المتعلقة بالموضوع والصفة والشكل ، ونميزها على المجموع حسب ما يحتمله الموقف ".[1]

وهكذا استطاع جينيت أن يجعل من المتعاليات النصية نظاما محكما ،ساهم به في تطوير البحث التناصي ، بإعطاء الإجراءات التحليلية للنص نمطا قانونيا علائقيا لمعاينة وتمييز نص دون آخر .

[1] - جيرار جينيت : مدخل لجامع النص ، ترجمة : عبد الرحمان أيوب ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط2، 1989 ، ص 91 .

3- التناص عند العرب القدماء :

إن المتتبع للإنتاج النقدي والبلاغي العربي يجد دليلا قاطعا على أن العرب القدماء قد أحسوا بظاهرة التناص، يقول صبري حافظ :" التناص واحد من المفاهيم الحديثة التي نجد لها بعض البذور الجنينية الهامة في نقدنا العربي القديم ، والتي تطرحها المحاولات النقدية المعاصرة في سعيها الدائب ، لتأسيس نظرية أدبية حديثة " .[1]

لكن كان ذلك بمصطلحات أخرى ، وحتى أن بعض الشعراء العرب قد تنبهوا وفطنوا لهذه الظاهرة منذ العصر الجاهلي ، حيث قال كعب بن زهير :

ما أرانا نقول إلا معارا أو معادا من لفظنا مكرورا .[2]

ومن هذه المصطلحات نجد:

1- السرقات الأدبية

2- التضمين .

3- الاقتباس .

4- المعارضة .

5- المناقضة .

وهناك مصطلحات إلى جانب المصطلحات السابقة قد جاءت في كتب النقد والبلاغة ، ومنها : الاستشهاد ، العكس ، الاجتذاب ، المخترع ، التلميح ، التورية ، الإشارة ، الإدماج ، الإسهاب ، الإغارة ، الغصب ، المسخ ، الأخذ ، العقد ، الحل ، الاحتذاء ...

[1] - صبري حافظ : التناص وإشارات العمل الأدبي ، مجلة البلاغة المقارنة (ألف) ، العدد 4 ، ص: 9 .

[2] - كعب بن زهير : الديوان ، قراءة وتقديم : محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1995، ص: 31.

1-3- السرقات الأدبية :

إن مصطلح التناص من المصطلحات التي لها جذور ف ي النقد القديم ، حيث لاحظ بعض النقاد العرب القدماء أن معاني بعض الشعراء تتكرر عند شعراء آخرين " فدرسوا ذلك تحت باب السرقات الأدبية والمعارضة والمناقضة ، والتضمين والاقتباس والعكس والإغارة والإشارة ، وغيرها من المصطلحات النقدية "[1]، التي أوردها ابن رشيق في عمدته ، ولعل موضوع السرقات الأدبية كان له الحيز الأكبر في نقدها العربي القديم ، وبلاغته العربية ، فما مفهوم هذا المصطلح " السرقة الأدبية " ؟ وما العلاقة بينه وبين فكرة التناص ؟

[1] - ينظر: ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق : محمد عبد القادر أحمد عطا ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط1 ، 2001 ، ص: 216-217.